عائشة عصمت تيمور

(٦)

بيئتها الاجتماعية

ترى هل الحاضر إلاّ خلاصة ما أتعتهُ الحياةُ واستهلكتهُ من المطالب والجهود؟ وما هي البيئة أن لم تكُنْ تلك « الخلاصة » منظّمةً بيد الانسان ومشورته أو متنظّمةً بحكم الأحوال والاسترسال ؟ وهل اليوم ألاّ الماضي لغدٍ ، وهل يكونُ الغدُ ألاّ ماضياً لبعد غد ؟

انّ كلّ صباح وكلّ مساء يأتيان بمجهودهما وخبرتهما ليضيفاها الى ذخيرة الماضي الفسيح ، وكلّ خيط من خيوط الزمان ينسج نسيجهُ في رحاب ما يمرُّ ويتجمّع ويبقى . وعندما ننتقلُ من بيئةٍ الى بيئةٍ ، ومن مكانٍ الى مكان ، ومن آنٍ الى آن لن نجد أمامنا ألاّ صوراً مختلفة من صور الماضي الحيّ في كلّ حاضر وكلّ مستقبل

فاذا ما ولد الطفلُ تلقّتهُ دائرة من دوائر الماضي التي تدعى « البيئة » ، فوجد فيها بداهةً ما يقوم بحاجاته لأنهُ هو كذلك صورةٌ أخرى من تجمّع الماضي . فلا غرو ان يقوم كل نوع بنوعهِ . ولا غرو ان تحتشد أسرارُ الحياة وتوجز في البيئة التي هي صورة مصغرة من العالم . ولا غرو ان تكون ممثلةً للعالم وللحياة في أغداق نعمها ومواهبها بلا سبب على بعض اسراها ، وتكون لآخرين أقسى مثالٍ للجور والتعسف والحرمان

وليست البيئة من خصائص الانسان . بل للجماد ، والحيوان ، والنبات بيئتها الموافقة لنموّها ، الملائمة لطبيعتها . الاّ انّ الانسان قد يكون في بيئته الحسية يقوم بكل فرائض مرتبته الاجتماعية ومطالبها ويُعدُّ فيها من السعداء أو من البؤساء ، ويظل في داخله شاعراً بشعور غير هذا الذي يحسبهُ الناس عليه ، ويرتّبونهُ بموجبه . قد يكون جائعاً وهو يقيمُ الولائم ، سائراً في القفار وهو يتخطّرُ في الحدائق ، مستعطياً متسوّل الفكر والعاطفة وهو كثير الفضل والمنح . وعلى نقيض ذلك قد يشعر بأجنحة الحريّة تصطفقُ في نفسهِ وهو مكبّلٌ بالقيود والاصفاد . وقد يلمس مكمن مقدرتهِ وهو في أدنى دركات العجز . وقد يتّضحُ في وجدانهِ أعلى نهج

للمعرفة والحكمة وهو امّيٌّ جاهل لا يدري ، بموجب تعريف البشر ، الفرق بين اللغة والفنّ ولا ماذا يميّز بين الموسيقى والكيمياء

البيئة الاجتماعية هي دائرة الانسان الاجتماعي . إلاّ انها لا يأبهُ لها الانسان الحقيّ في الانسان ، الذي كثيراً ما يحتاج الى بيئة غير هذه ، ويختارُ اقاربهُ وعشراءهُ واحبابهُ مختلفين تمام الاختلاف عن الذين تجعلهم البيئةُ والحياةُ أقاربهُ وعشراءهُ وأحبابهُ . وفي هذه البيئة المعنوية صورةٌ اخرى من الماضي الباقي . ولكم آلمت الحياة نفسها بحصر هذه المناقضات في شخص واحد ! ولكم خلق الماضي لنفسه مستقبلاً جميلاً من لهف الحرمان ، وزفرات الاسى ، وتجسُّد الدماء التي لا تسيل !

***

وعائشة ابنة ذلك السريّ الوجيه والموظف الكبير الذي ، بعد تقلُّب في المناصب أيام عباس الاول وسعيد واسماعيل ، انتهى بان يكون رئيساً للديوان الخديوي — عائشة لم تفارق مرتبتها الاجتماعية بزواجها من محمد بك توفيق نجل محمد بك الاسلامبولي الذي كان حاكماً في السودان . ظلّت في تلك المرتبة تتمتّع بما هيأت لها بيئتها من رغد حسيّ ، وتعاشر مثيلاتها نساء العظماء والكبراء . ولقد ذكرتْ عَرَضاً في اواخر كتابها « نتائج الاحوال » شيئاً عن اختلاطها بالبلاط ، وذلك لشرح كلمة « واي واى اي غوث رانا واي شيذرتوانا » التي تقولها الاعاجم حين ما تُرمى بهول فجأةً » . قالت :

« . . . كانت تدعوني ربة العالي وكنز اللالىء والدة صاحب السمو اسماعيل باشا الخديو السابق تغمدها الله برحمته ومنحها فسيح جنانه — بالقصر العالي الترجمة عند حضور اقارب ملوك العجم. فكنت اسمع هاته اللفظة من افواههن . وهي كلمة تقال عند مفاجأتهن بشيء ما . وكنت اقيم معهن على قدر اقامتهن وأتأسى معهن واستفسر عن عوائدهن واخلاقهن »

في هذه الاوساط تجد ما ألفتهُ من كياسة وتهيب ، وما احسنتهُ من آداب المحادثة والمجاملة واللطف . على انّ اولئك السيدات لا يعنين بغير الشؤون المعتادة في العائلة والاجتماع وما أُفعمت به من مسرّات واحزان . أما عائشة فشأنها شأن العاشق الذي تبدو لهُ جميع محافل الانس والطرب موحشةً مقفرةً لتغيُّب الحبيب عنها

في تلك المرتبة الرفيعة فخامة الصروح ، وضخامة الالقاب ، وأبهة المظاهر ، ولكنها فيها يعوزها القوت ، ويعوزها السرور ، وتعوزها الحرّية . انها تتوقُ الى

الاختلاط بالذين يعرفون ما تعرف ، ويفكّرون كما تفكّر ، ويحبّون ما تحبّ . في الخارج حركة التطوّر تجري مجراها الطبيعي ، وان وثبتْ حيناً ، وتريثت حيناً . وفي الافكار غليان ، وفي الحماسة فتوّة ، وفي القلوب اشواق . ولا تخلو المدينة من دوائر علمية يتحاضر فيها أهل الفضل على طريقة العصر ، ويتناقش فيها الادباء كأنهم في وفاقهم وفي اختلافهم أعضاء الاسرة الواحدة . ولكن عائشة المغنوية ان هي تجاوزت اسماء عصرها بالمعرفة والفهم ، وسبقتهنّ باقتحام عواطفها وتقدّم مطالبها ، فان عائشة الاجتماعية تظلّ مخدّرة محجوبة

صدمتها الحياة المرة الاولى في النضال مع والدتها بين الكتاب والابرة . فأيّدها الوالد الحصيف وسيّرها الى ما تريد . وجرت خطوات في فرحة الاعوام فاذا بصدمة أشدّ واصلب ، صدمة العادة والتقليد . هذه لن يحميها منها الوالد القادر ولن تخرج عليها نفسها القلقة . اخبرني كيف تثور على جماعتها امرأة هي ابنة رجل معروف وامّ اولاد محجوبين ، وليس بين جماعتها صوت ينكر تلك العادة ويدعو الى تغيير ذلك التقليد ؟ يومئذٍ كان قاسم حديثاً ، ولعلّه كان من دعاة الحجاب . ولعلها هي كذلك لم تفكّر في وجوب السفور . بل عمدت الى تلك العلامة الاخرى من علامات النبوغ ورضيت بها : الاحتمال حيث لا منفذ غيره

امتثلت واحتملت . ولكن حتى للاحتمال والامتثال ساعات لا مندوحة للمرء فيها عن ان ينفّس كربتهُ ، ويندب حسرتهُ ، ويرسل ما هو اشبه بنبأة السجين المظلوم . فقالت انها دعتها :

« الرأة بكل مغبون لقي ما لقيت ، ودهي بما به دهيت ، الى ان ابدع له احدوثة تسليه عن أشجانه عند تزاحم الافكار ، وتلهيه عن احزانه في غربة الوحدة التي هي اشد من غربة الديار ... » (١)

هذه الكلمة تكفي لتشعر مع عائشة بوحدتها المضاعفة . وهذه الكلمة وهي لوحة تصويرية تامة ، تدهش عند امرأة سبقتنا بثلاثة ارباع القرن . وغريب ان تهتدي يومئذٍ الى حقيقة تلك « الوحدة » وان تعبّر عنها — وهي ابنة عصر التطويل والتبسّط — بهذا الايجاز البليغ

وكأنها مرّة أخرى تجدُ بعض الراحة في شرح المها بشكل الاعتذار المجمّل بالسجع والتورية :

(١) « نتائج الاحوال »

« . . . لم يمكن لي دخول محافل العلماء المتفقهين » . . . « فكم التهب صدري بنار شوق الى محافلهم اليوانع ، وادر جفني على خرماني من اجتناء ثمرات فوائدهم در المدامع . وقد حالني عن الفوز بهذا الامل حجاب خيمة الازار ، وحجبني قفل خدر التأنيث عن سناء تلك الانوار . واحلاني بسجن الجهل حليف اقفال واوزار . فكانت تلك الحجب لمن لام في هفوات هذا السطور اكبر اعذار . فلا تلوموا معشر الافاضل خبية ، ولا تبئسوا بسجينة شجية . . . » (٢)

. . . وخصوصاً . . . لاتلوموا معشر القراء في هذا العصر كاتبةً مسجّعة . لأنكم لو رجعتم الى ما كتبهُ بعض « كبار » الناثرين في عهد الخديويين لعثرتم على ما ليس فيهِ شيءٌ من إحكام عائشة ولا ذرّةٌ من صدق عواطفها . ولي من هذا البيان معارضٌ لما جاء في جريدة « الافكار » الصادرة يوم ١٣ مارس ١٩٢٣ ، استهلالاً لمقال عن الصالونات الأدبيّة في فرنسا وانجلترا والمانيا وعلاقة الآداب في تلك البلاد بالدوائر النسائية الفكرية . قالت « الأفكار » :

« كنا نريد ان نكتب شيئاً عن السيدة عائشة تيمور باعتبار ان تاريخ حياتها يفيض النور على الحركة الادبية الفكرية في مصر في عهد اسماعيل وتوفيق . ولقد اجهدنا انفسنا على غير طائل وراء الحصول على وصف ولو مجمل او غير دقيق للدائرة الادبية التي ظلت سنين عديدة تجتمع بلا انقطاع في منزلها (بدرب سعاده) . ولكننا سنتكلم عن سيدة انكليزية (ليدي وايت) تشبه السيدة عائشة تيمور من حيث جعل منزلها ملتقى كبار الكتاب والشعراء في عصرها . . . »

من أين جاء كاتب هذه الفقرة بمعلوماته ؟ أهو استند على قول عائشة : . . . « صرتُ انهافت على حضور محافل الكتّاب بدون ارتباك فأجد صرير القلم في القرطاس اشهى نغمة ، واتحقق إن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة . . . » وهي تعني بذلك أيام اختلافها ووالدتها في حداثتها القصوى قبل ان تتحجّب — ؟ أم هو رأى ما قد يشيرُ اليهِ ذلك في القصائد العربية والتركية التي رثت بها بعض العلماء ؟ أم لديهِ دليل آخر ؟

حاولتُ الاستفسار عن ذلك من المسيطرين على « الافكار » في ذلك الحين فلم أظفر بالجواب الشافي . وتيمور باشا الذي قال قبلئذٍ ان شقيقتهُ كانت « محجوبة » أجاب على السؤال الجديد بقولهِ انهُ يظنّ « ان ذلك لم يحصل »

أسافرةً كانت عائشة — أحياناً — ، أم محجوبة دواماً ؟ نقطة في غاية الاهمية ولكن يتعذّر جلاؤها ، خصوصاً بسبب تباين السن تبايناً كبيراً بين تيمور باشا وشقيقتهِ . فاذا جاء يوماً من يثبت بالحجة الناصعة سفور عائشة في تلك المحافل

٢) « نتائج الاحوال »

الكريمة ، سجّل للشاعرة فضلاً جديداً وشجاعة فائقة ، وأظهر انها بشير التحرّر النسوي ليس من الوجه النظري والفني فحسب ، بل بالعمل كذلك. لانها تكون قد حققت قاسماً قبل ان يتكلم قاسم — أقول هذا مع احترامي التام لرأي دعاة الحجاب

***

أما وأندية الرجال ليست ، في الظاهر ، لشاعرتنا فلتتحوّل الى اللاتي قد تتناعم معهن من النساء . وفي مقدمتهن « ربة الادب الباهر والقدر الشريف السيدة وردة بنت الفاضل الشيخ ناصيف » اليازجي . فان عائشة لتتمثّل بها وتذكرها بالاعجاب في ديباجة « حلية الطراز » . واهدت اليها نسخةً من ديوانها بعد صدوره. فشكرتها « وردة العرب » نثراً ونظماً . وعقب هذه الصلة الاولى تبادُل بعض الرسائل اثبتتها زينب فوّاز في كتابها « الدرّ المنثور » . لن نجد في تلك المراسلة كلّ الحياة التي يودعها بعض الادباء في رسائلهم حتى ليتغذّى بها أصحابهم أياماً واسابيع ، ويتمشقونها كأنها قطع من أرواحهم . بيد انك ستجد سبك الكلام اللطيف ، والثناء المأنوس ، والنظم الحلو الرنّان الذي يرضي ويعجلك شاكراً لهاتين السيدتين ما أبرزتا لك من اسلوب المجاملة النسائية الكتابية في ذلك العصر (٣)

وهناك سيدتان قيل لي انهما كانتا تقولان الشعر وهما ابنتا حبيب افندي الكتخدا ، ومن عشيرات الشاعرة . لم أوفّق الى شيء من آثارهما وقد قلّ من سمع بأدابهما بين المصريين . حتى اني قيل لي مرّةً عند ذكرها اني ابتدع شعرها من مخيلتي على نحو ما فعل زفس بابنته بالاس — اثينا التي أخرجها من رأسه تامّة الجمال والكمال . لا شيء من ذلك . بل قال لي احد الفضلاء انهُ قرأ لاحداهما أبياتاً جيدة

ومن معاصراتها الست المغربية والبون بينها وبين عائشة شاسع جدّاً طبقة وحالة ومعرفة . الاّ انها كانت امرأة ذكية ، سريعة الخاطر ، تمازح الناس بشيء من الجرأة المتطرّفة ، وتتطارح الازجال مع الشيخ علي الليثي وغيره . ومن المأثور عنها من دلائل سرعة الخاطر انهُ اتّصل بها يوماً ان أحد الباشوات كان يرميها بما هو غير حسن وغير ممدوح . فأجابت المغربية بابتسامة ذات معنى خطير : « والله كلام سعادة الباشا في محلّه . . . »

(٣) السيدة وردة اليازجي صاحبة ديوان «حديقة الورد» هي مع عائشة التيمور الاول في نظام الحالة النسائية في الشرق

كذلك نعرف زينب فوّاز السورية المولد المصرية الموطن ، منشئة « الرسائل الزينبيّة » فضلاً عن فصولها الاخرى وقصائدها . وهي التي عقدت في كتابها « الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور » فصلاً مطوّلاً عن شاعرة آل تيمور . وصدّرت الكتاب المذكور بخطابين من السيدة عائشة مثقل بالثناء والتبجيل على نحو ما كانوا يثنون يومئذٍ ويُبجّلون

ويحدثنا « المقتطف » في عدد يونيه ١٨٩٧ عن السيدة ليلى هانم « كريمة المرحوم خليل باشا شريف من وزراء الدولة العليّة ، وأخي المرحوم علي باشا شريف رئيس مجلس شورى القوانين السابق » . فيقول ان هذه السيدة « تكتب بالانجليزية مقالات تُنشر في أشهر المجلات » وانها كتبت رواية غرامية اسمها (A Turkish Love Story) ترجمها محرر « المقتطف » ونشرها متتابعةً في المجلد السادس والعشرين سنة ١٩٠١ باسم «رواية أمينة » . قرأتُ هذه الرواية بشوبها العربيّ بكلّ سرور في العام الماضي . ولا شك عندي ان الوصف فيها « لحريم » الاستانة يومئذٍ أصدق من كلّ ما كتبهُ الافرنج في هذا الباب

وليست لتقصر يقظةُ المرأة على الكاتبات والأديبات بل للمهتمّات بالشؤون العمومية عن غير طريق القلم أثر قيم . لذلك يتسع المجال هنا لذكر المغفور لها البرنسس عين الحياة الزوجة الأولى للسلطان حسين (يوم كان أميراً) ، ووالدة حضرة صاحب السموّ السلطاني البرنس كمال الدين حسين . فانها كانت معروفة بالمقبرة والفطانة وحبّ السعي الحميد . ومن مآثرها الخطيرة الشأن « مبرّة محمد علي » أوّل جمعية خيرية للسيدات المسلمات ، والوحيدة من نوعها في الاسعاف والمعالجة . بيد أنها لم تشهد نتيجة ما دعَت اليه . ولم يتمّ الشاهد المستوصف الأول الذي أطلق عليه اسمها وما زال معروفاً به « مستوصف عين الحياة » ألاّ بعد وفاتها في اوائل ١٩١١ . أما الغرض الذي عينتهُ لنفسها هذه الجمعية فهو « العمل جهد الطاقة — اولاً لتقليل عدد الوفيات الجسيم من الصغار في القطر المصري ، ثانياً لتقليل عدد وفيات الامهات الناجمة عن حميات النفاس » . وما فتئت السيدات الكريمات القائمات بهذا المشروع يتعهدنهُ برعايتهنّ واحسانهنّ . الاّ انهُ ما زال مفتقراً الى التنشيط والتوسيع

وماذا اقول عن البرنس نازلي المتّهبة ذكاء ، البارعة في الموسيقى وفي اللغات

التي عرفتها ، الخارجة على عادات زمنها بمقابلة من شاءت من افاضل الرجال والتدخل في مختلف الشؤون العالمية والحوادث الوطنية . واقد نشر المرحوم ولي الدين بك يكن في كتابه « المعلوم والمجهول » صورة خطاب ارسلتهُ الى عبد الحميد في ايام بطشه وجبروته . وحسب القارىء الاطلاع على هذا الخطاب ليعرف بنت « ابي الاحرار وقائد كتاب الحرية » البرنسس مصطفى فاضل باشا ، وما كانت عليه من الجرأة والذكاء والنزعة الاستقلالية . قالت تخاطب صاحب الجلالة اليلدزية الرهيبة :

القاهرة في ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٩٦

مليكي ،

قرأت مع الاسف الشديد في جرائد اوربا التي وردت في هذا الاسبوع ان مولاي الاعظم غاضب عليَّ غضباً شديداً . وعلمتُ ان السبب في غضبه حضوري مؤتمر « تركيا الفتاة » الذي عُقد بباريس . ولهذا ارجو الاذن لي ببيان ما يدور بخلدي في هذا الباب :

ان استهدافي للغضب الملوكي ليس بالامر الحادث . ولكنهُ مستمرٌ منذ اربع سنوات . واذا وجب ان يميز من حلَّ بهم ذاك الغضب سهل تعيين الفئة التي ينبغي ان أحشد في عدادها . غير ان حضوري مذاكرات هذا المؤتمر ليس تذرُّعاً للشهرة . فهو اذن منزَّه عن كل غرض ذاتي

يذكر مولاي الاعظم انهُ قال ذات يوم للمرحوم خليل باشا شريف : « اني مغرم بكلمة الحق » . ولقد بشَّرني المرحوم بهذه البشارة الملكية وتعاهدنا كلانا منذ ذلك ان لا نحيد عن كلمة الحقّ

قرأتُ ما ينشرهُ هذا المؤتمر منذ زمن مديد واطلعتُ على اللوائح التي رفعها الى الاعتاب الشاهانية . ولما كانت هذه المنشورات عثابة كلمة حق في وصف الدمار الذي باتت فيه الممالك المحروسة الشاهانية ، رأيت ان احضر مذاكراته عند نزولي بباريس

فشهدت من الجميع منتهى الودّ والولاء للمقام الملوكي وللوطن والامة . ورأيت الجميع باكين لحال الوطن الذي بات على شفا الفناء . فهاجني ذلك وتذكرت ان مولاي كان مغرماً بكلمة الحق . فظننتُ واسفاهُ انهُ ربما تسلّى عن ذلك الغرام . ولكن عزَّ فؤادي ما عاهدت الله عليه وأيقنت ان العشق يزول والعهد يبقى

لما زرتُ الاستانة منذ أربع سنوات أوصاني بعض المقرَّبين بأن أرفع الى مولاي

عريضة استقيل بها من هفواتي . ولما لم يكن لي علم بهفوة سبقت لي لم اقدم على هذا الأمر . فقد تغيرت سياسة مولاي مع الانكليز . وذهب الرضاء الذي كان توسط لي في نيله المرحوم السير هنري لايرد : وأني لأتلقى بكل ارتياح توسط الانجليز لي في احراز رضاء مليكي . بل أشكر اليوم ما أصابني من الغضب الملوكي . وانّ في بعدي عن مشاهدة ما وقع بالاستانة من الزلازل وما نزل بالرعية من الفقر ، وما جرى من دماء المظلومين الذين ذبحوا كما تذبح الأضحية ، وعن سماع استغاثات المظلومين وتأوهاتهم ما يسلّيني وما احمد الله على بعدي عنهُ . وسأستمر لذا على العمل بنصّ الأمر الملوكي الذي يمنّيني الحكومة المصرية غير رسميّ — ما دامت لي الحياة

على اني لا ابرح داعية بطول عمر مولاي وبقاء دولته . ولا ابرح داعية بان يعود لهُ سالف غرامهِ بكلمة الحق . فاذا قدّر الله ليزولن بؤس اليوم كما تزول الرؤيا المفزعة . فيصبح سعيداً مهنأ . ويلقى رعيتهُ في رغد بالاتحاد والحرية . فان رعيتهُ لا تريد منهُ الاّ ان يكون أباً مشفقاً . لعلّي تجاوزت الحدّ واسأت البيان . فلست أدري مبلغ وقع ما أتشرّف بعرضهِ . فليثق مولاي ان كلام اصدق عبيدهِ في زماننا هذا لا يختلف عمّا جرى بهِ قلمي . وليوقن مولاي ان ورقتي لم تُسطّر الاّ بخالص النية وصادق الولاء

بنت المرحوم مصطفى فاضل باشا المصري

خادمتك

نازلي(٤)

يجب لتعلم قيمة هذه الرسالة ان تعلم من هو عبد الحميد وكيف كان ينتقم من مناهضيه في اية بقعة كانوا من الارض . فكيف بهم في مصر ومن اعضاء الاسرة المالكة ؟

***

قد يفوتني اسماء اخرى معروفة . وقد يكون ثمّت سيدات كثيرات ذكيات قديرات من اللاتي يُدمَجْن في « الطراز القديم » وقد يدهشن العالم والمحنّك باسلوب ادارة بيوتهنّ وأعمالهنّ وأملاكهنّ لوفرة ما يبدين من الخبرة والدراية — حتى ولو كنّ اميّات . ولكن أيكون لمثل عائشة من مثيلاتهنّ بيئة معنوية ؟ (مج)

(٤) عن « المعلوم والمجهول » جزء اول . وقد قدم ولي الدين بك هذه الرسالة قائلاً انها منقولة عن جريدة « حلام » التي كان يصدرها شقيقه يوسف بك حمدي يكن

الدكتور ادورد بينس

الرئيس ماسرك

مقتطف دسمبر ١٩٢٣

امام الصفحة ٣٦٣